المجلة التاريخية الجزائرية
ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664
المجلد:08، العدد:01 (2024)، ص122 - 138

مقاربة منهجية في دراسة الموروث الحضاري المادي (قراءة في طبيعة الأضرحة الملكية النوميدية)

A systematic approach to studying the material cultural heritage (A reading into the nature of the Numidian royal shrines)

أمين بن فرفود
مخبر التاريخ والحضارة والجغرافية التطبيقية
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة (الجزائر)
amine.ben-ferfoud@ensb.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2024/02/16
تاريخ القبول:
2024/05/01

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الموروث الثقافي
- ✓ الأضرحة الملكية
- ✓ العمارة الجنائزية
- ✓ ملوك النوميد

الملخص

يهدف هذا البحث لمعرفة طبيعة التراث المادي ومدى تأثيره في ثقافتنا، الذي يحتاج إلى قراءة جديدة، لفهم أنماط وسلوك تلك المجتمعات البشرية القديمة ومعتقداتهم، وتعلقهم بالفن المعماري الأصيل؛ والبحث عن انعكاسها في الحاضر ومدى تطور عناصرها الفنية ذات الطابع المحلي، ومن النتائج التي توصلنا إليها ما يلي: أن الأضرحة الملكية النوميدية تعتبر معالم هندسية هامة في خريطة العمران الجنائزي المحلي ترتكز عليها آمالنا للبحث عن الانتماء والجذور العميقة لأصولنا، كما تؤكد على قدم الاستقرار البشري ووجود نظام سياسي قديم في المنطقة.

Article info

Received:
16/02/2024
Accepted:
01/05/2024

Key words:
- ✓ Cultural heritage
- ✓ Royal shrines
- ✓ Funerary architecture
- ✓ Numid Kings

Abstract:

This research aims to know the nature of material heritage and the extent of its influence on our culture, which needs a new reading, to understand the patterns and behavior of those ancient human societies and their beliefs, and their attachment to authentic architectural art, and to search for its reflection in the present and the extent of the development of its artistic elements of a local character, and from the results we have reache the following : The Numidian royal shrines are considered important architectural landmarks in the map of local funerary architecture, upon which our hopes for searching for belonging, and the deep goy of our origins are committed. They also confirm the antiquity of human settlement and the existence of an ancient political system in the region.

مقدمة

يكتسي التراث المحلي أهمية بالغة في الكتابة التاريخية، لأنه يقدم لنا توصيفا ثريا عن الصورة الحقيقية للمعتقدات القديمة السائدة في الجزائر خلال العصور القديمة، مما يساعد على إعطاء مقاربة منهجية تساهم في فهم طبيعة الأحداث والمعالم الجنائزية ضمن سياقها التاريخي، بحيث تعد الأضرحة الملكية القديمة عبارة عن موروث مادي شاهد على عصره، يبين أن الحاضر يحمل في طياته بذور الماضي وأن تاريخ الأمم العريقة يتجلى بآثارها، وينبثق من أصالتها ووجودها، وهذا يقودنا إلى طرح الإشكالية التالية: **ما هي الآليات المنهجية التي تساعدنا في قراءة وفهم طبيعة الأضرحة الملكية النوميدية وإلى أي مدى يمكن استغلال هذا الموروث الحضاري والاستفادة منه في واقعنا؟**

إن الجزائر كمصطلح جيو–سياسي معاصر، وكمجال جغرافي، حضاري وإنساني، تزخر بمجموعة من المعالم الأثرية الجنائزية والأضرحة الملكية القديمة، التي تعتبر من المكونات الثقافية، ذات العمق التاريخي الأصيل في المنطقة، من شأنها أن تعبر عن ذهنية اجتماعية وعقائدية غابرة، بقت آثارها إلى يومنا هذا فأصبح ذلك الفضاء العمراني القديم منارة إشعاع لحضارة سابقة ذات قيمة مضافة، لإدراك ومعرفة طبيعة الماضي بكل تلقائية وعفوية، مخلفا وعاء غني بالإيحاءات الجمالية من حيث الذهنيات والمنطلقات العقائدية.

كما أن الأضرحة الملكية النوميدية تعتبر معالم هندسية هامة في خريطة العمران الجنائزي المحلي، ترتكز عليها أمالنا للبحث عن الانتماء والجذور العميقة لأصولنا، تؤكد على قدم الاستقرار البشري ووجود نظام سياسي قديم في المنطقة. فهي لم تنشأ صدفة بل لها أبعاد عقائدية، اجتماعية وسياسية، كرست علاقة ملوك النوميد بشعوبهم القائمة على الاحترام والتقديس، عززت الروابط الاجتماعية التي تحولت تدريجيا إلى أعراف ومعتقدات هامة، حيث جسدت علاقتها بالبيئة الطبيعية مخلفتا تراكمات تحتوي على خبرات وتجارب الإنسان.

ويهدف هذا البحث إلى إيجاد مقاربة منهجية تساعدنا في دراسة وفهم طبيعة المعالم الجنائزية لاسيما فيما يتعلق بالأضرحة الملكية النوميدية، كمعالم تبرز تطور العمارة الجنائزية، وتوضح البصمة المحلية التي جسدت جوانب هامة في حياة الإنسان، على غرار الجانب العقائدي الذي خلف على إثره أرقى الأعمال المعمارية ومعبرا عن ذوقه الفني مكرسا تلك التقاليد المتعلقة بتكريم شخصيات العائلة الملكية الماسيلية، كما نهدف لإعطاء قراءة جديدة وفعلية لهذا الموروث المادي، الذي تناولته الدراسات السابقة بأشكال وزوايا مختلفة. ولمعالجة الإشكالية المطروحة، سنعتمد على المنهج التحليلي الوصفي.

1. مساهمة الأضرحة الملكية القديمة في بناء تصور ثقافة واهتمامات الإنسان المحلي القديم

يساهم الموروث الثقافي(الحضاري) في الجزائر، من خلال المعالم الجنائزية وبالأخص الأضرحة الملكية في بناء تصور فكري لطبيعة حياة تلك الشعوب والمجتمعات، ويوضح اهتمامات الإنسان المحلي القديم، لأن العودة إلى تلك الفترة الزمنية أمر لا مفر منه بالنسبة إلى كل من يلتمس في التراث إجابات عن الأسئلة التي يثيرها العصر الحالي، وهذا يجعلنا نتساءل حول تلك الثقافات البعيدة زمنيا والحاضرة مكانيا، هل يمكن أن

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

نقول بصدق أننا منتمون لتلك الثقافات التي ظهرت في عصر تختلف جميع مقوماته عن عصرنا إلى درجة أننا لا نعرف **كيف نستثمر فيها ونستفيد منها في حياتنا الراهنة؟** (فؤاد، 1976، الصفحات 92-93).

وعلى هذا الأساس سنعالج هذا التساؤل بدراسة علاقة التراث بالتاريخ والهوية من خلال تحليل المعطيات المادية وإيجاد مقاربات تحدد طبيعة تلك الأضرحة الملكية النوميدية:

1.1. علاقة التراث بالتاريخ والهوية من خلال المعالم الجنائزية

إن كتابة التاريخ تعتمد بالأساس على تلك المنعطفات والأحداث المؤثرة، والنقاط المعلمية المرتبطة بالإنسان في الزمان والمكان، فهي وعاء فكري يبرز لنا الحقيقة التاريخية التي نسعى إليها، ويوضح لنا المسلك الذي نقتدي به ونعتمد عليه، باعتبار أن الفرد حيث ما وجد وكان، لابد من أن يترك أثر وجوده في ذلك المكان، مخلفا أثارا ومعالم تبين طبيعة العيش والتفكير لأولئك السكان، التي ظلت شاهدة على الروح الإبداعية للإنسان، وتوضح تمسك تلك الشعوب والأمم العريقة بآثارها وحضاراتها المنبثقة من أصالتها ووجودها في هذا المكان، والتي يجب علينا الاستفادة منها وتوظيفها في فهم طبيعة ذلك الواقع قدر الإمكان.

ثم إن تعلق الإنسان القديم بفكرة الحياة الأبدية أو الحياة ما بعد الموت، خولت له الاهتمام بقبور موتاهم ووضع معالمها بعيدا عن مساكنهم في قمم الجبال، وأهمية هذا المعتقد طغى على حاجته إلى المأمن والعيش والمسكن (كامبس، 2009، صفحة 77)، فبعد أن كان في عصور ما قبل التاريخ يودع موتاه الخيام(المساكن) في الهواء الطلق، شهد عملية انتقالية مكنته من دفنهم تحت رجام مخروطة الشكل من الحجارة المتنوعة الحجم، في صورتها البسيطة تسمى البازينة (Bazina) والشوشت (Chouchet)، بعيدا عن مقر سكنه (جوليان، 1983، صفحة 79).

وعلى إثر ذلك قد خلّف في الأرض الجزائرية معالم جنائزية كنوع من الفن المعماري القديم الأصيل، بقت معالمه واضحة إلى يومنا هذا، نستمد منه الدروس ونستلهم من خلاله الفكر والنهج المبدع في فن العمارة والبناء، خلّدت نوعا من المعرفة بطبيعة الهندسة المعمارية الراقية، التي لا تزال حية بتصاميمها الدقيقة، معبرا عن ذوقه الفني الجميل المتأصل، وكمصدر حيوي للإبداع متفق عليه بالإجماع؛ ومنبع للإلهام يتأثر به الخاص والعام؛ يعزز الانتماء للوطن، ويؤكد قيمته من الجوهر والمعدن، ويثبت حضوره ضمن المحافل الثقافية العالمية، ويكرس طبيعة المعتقد والفكر لتلك الجماعات المحلية الآدمية.

كما أن تطور فن العمارة القديمة، ناتج عن تغير وتنوع في عادات الدفن، المتمثلة في إبعاد جثث الموتى عن سكن الأحياء، أي الفصل النهائي بين الأحياء والأموات بداية من فجر التاريخ، حين أصبح الإنسان يفرق بين مسكنه ومدفنه، وهذه الظاهرة الأخيرة اعتبرها بعض الباحثين المهتمين بالتحقيب التاريخي، نقطة مفصلية لبداية عصر آخر ألا وهو: فجر التاريخ في بلاد المغرب القديم (غانم م.، 2006، صفحة 10).

ولما كانت ظاهرة الموت هي أكبر هواجس الإنسان القديم، لذا بدأ الإنسان المغاربي، يفكر منذ أواسط العصر الحجري، في عملية دفن الميت ومواراة ذلك الجسد الهامد داخل التراب، معبرا بذلك عن سلوك حضاري

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

مادي وتاريخي، وصل إليه فكره في مرحلة من مراحله المتطورة، خاصة تلك المعتقدات المتعلقة بعالم ما بعد الموت، من خلال إنشاء وبناء ألوان متنوعة ومختلفة من العمارة المغاربية القديمة، على غرار مقابر الدولمن والحوانيت، البازيناس، الشوشة والتيميلوس...وغيرها، حيث اختلفت حسب المؤثرات الجغرافية والحضارية نتيجة احتكاكه بالطبيعة والمحيط الخارجي، مما أدى هذا التقليد المحلي إلى تطوره في شكل أضرحة ضخمة، تجسد الفكر الجنائزي لدى أسلافنا، كتعبير عن صدق واقع حياتهم، وتشكل معلما تاريخيا وجزء لا يتجزأ من تراثنا الحضاري القديم (غانم م.، 2006، صفحة 25،27).

وفي نفس السياق، يمكن أن نتساءل حول **اهتمام الإنسان القديم بالمدفن على حساب المسكن؟ هذا الطرح يقودنا إلى تساؤل آخر؛ لماذا اهتم الإنسان القديم بالعمارة الجنائزية بنسبة كبيرة بالمقابل نسجل غياب أو نقص ملحوظ في العمران المدني وعدم اهتمامهم إلا جزئيا بإنشاء المدن؟**

إن طغيان المعالم الجنائزية كنوع من العمارة الدينية، ربما جعلتنا نلاحظ نقص في العمران المدني للأهالي لأن هذا الأخير معالمه غير واضحة، بالرغم من إقرارنا بوجوده وتنوعه، خصوصا إذا كان اهتمام الإنسان جزئيا بالقصور والمساكن المعاصرة لملوك النوميد، كما نرى أن المنازل القديمة قد أزيلت واندثرت نتيجة البناء على أنقاضها وطمرت تحت المباني الرومانية، بمعنى زوال القديم بالجديد، وهذا يفسر زوال المساكن داخل المدن، وبقاء المعالم الجنائزية باعتبار أن أغلبها خارج المدن تتمتع بالضخامة والتنوع، وهو ما يفسر دوامها (حارش، 1995، صفحة 152).

فضلا عن ذلك، فالتواجد الأجنبي كاد يخفي حقيقة وجود العنصر المحلي ومنجزاته الحضارية في صورها المختلفة، بدءا من البنايات الترفيهية إلى الطقوس الجنائزية حول الأموات، مما ساهم على اللاحق منهم إزاحة السابق، في شكل تعاقب دول وحضارات محلية وخارجية على بلاد المغرب القديم، التي عانت نكبات المسخ والهدم الحضاري المنظم نتيجة الاحتلال، وهذه الظاهرة الانتقائية نجم عنها تهميش مساهمة الأهالي في إنجاز الأعمال الحضارية بمختلف أشكالها (شنيتي، 1999، الصفحات 8-9)، لكننا نرى أن مخلفات العمران المحلي بنوعيه المدني والجنائزي ظلت شامخة، وفرضت وجودها طيلة العصور التاريخية السابقة، رغم محاولة تغييب الدور الحضاري للأهالي، وأثبتت جزءا ولو بسيط من معتقدات الأجداد(الأسلاف).

وعلى هذا الأساس فقد ساهم الاحتلال في فرض منطقه، وترسيخ قواعده الحضارية، على حساب ما خلفه الأهالي، وهذا ما فعله الرومان بعد انتهاجهم سياسة التدرج في الاحتلال، فعملوا على فرض وجودهم بالمنطقة واعتمادهم على النمط العمراني الروماني على أنقاض البنايات الأصلية، بعد طرد السكان المحليين وراء خط الليمس وفرض استقرارهم في الأرياف، ومحاولة تثبيت وترسيخ سياسة الرومنة بأبعادها الحضارية، ومن دون شك كانت توجد إلى جانب ذلك مدن وحواضر نوميدية وموريه تعيش على هامشها، سادت فيها الهندسة المعمارية الشائعة في العالم القديم، لكن للأسف اندثرت نتيجة التوسع العمراني للأمم الدخيلة: كالرومان، الوندال، البزنطيين...وغيرهم (رابح، 2007، صفحة 7).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2.1. قراءة في طبيعة ومدلولات الأضرحة الملكية النوميدية

إن معرفة طبيعة هذا التراث المادي وتأثيره في ثقافتنا، يحتاج إلى قراءة جديدة، تؤدي إلى مراجعة طريقة معالجتها وأساليب المستعملة في فهم أنماط وسلوك تلك المجتمعات البشرية القديمة ومعتقداتهم، وتعلقهم بالفن المعماري الأصيل، والابتعاد عن النظر لتلك المعالم الجنائزية على أنها مليئة بالغرابة والخرافة، وهذا الطرح يجعلنا نتساءل **عن طبيعة ومدلولات هذه الأضرحة الملكية، فهل طبيعة وجودها تقودنا لمعرفة معتقدات كانت سائدة في القديم؟**

لما كانت الأضرحة الملكية النوميدية (المدغاسن أو الضريح الملكي العائلي المشترك بتيبازة) نماذج معمارية أهلية نوميدية أصيلة ذات تأثيرات إغريقية وفينيقية (Gsell, 1901, pp. 67-68) ، مما يعنى أن هذه الأضرحة تحتفظ بالبصمة المحلية رغم التأثيرات الخارجية(Gsell, 1911, p. 6) .

وحتى أن الباحث "**كاهين Cahen**" فسّر مصطلح " مدغاسن" أنه يعني مساكن الملوك أو المسكن الدائري، فهو يشير للمسكن وليس للمدفن، ربما يشير للحياة والعيش ما بعد الموت، وهذا يعبر على أن الضريح "**مدغاسن**" يعود أصله لمادغيس أحد أجداد ماسينيسا، ويعتقد أن السكان المعاصرين احتفظوا باسم سلفهم الأسطوري المرتبط بالأضرحة الضخمة، حتى أن هذه الشخصيات الأسطورية من أمثال: الملك هيرباس، مادغوس، هركول... وغيرها تحتاج إلى بحث معمق (Camps, 1973, p. 472).

وعلى هذا الأساس يمكن أن نفترض أن الأموات استطاعوا من خلالها الارتقاء إلى شكل من الحياة في ذاكرة الأحياء، هذه الأضرحة تبقى راسخة عبر العصور لكل من شاهدها، كرسالة هادفة صيغة بلسان حال الأموات، تبين أن تاريخ الأمم العريقة يتجلى بآثارها، وينبثق من أصالتها ووجودها. ودراسة طبيعتها كنوع من مدافن الملوك ومساكن للآلهة، تنطوي ضمن معتقدهم حول عبادة الملوك وتقديسهم، ويعود ذلك لأسباب نفسية واجتماعية تتسم بالطابع السياسي، وفقا لفضلهم وسلطتهم في حفظ الأمن وتماسك المجتمع النوميدي (غانم م.، 2005، صفحة 36).

وهذا يقودنا إلى تساؤل آخر: **هل يمكن أن يُبْنى الافتراض على أن هذه الأضرحة تُوضِح اهتمام الأموات بالأحياء؟** بمعنى محاولة أولئك الملوك لفت انتباهنا عبر هذا الموروث المادي، من خلال ذلك السلوك أو النشاط الاجتماعي والإنساني الذي مارسه الأسلاف، تدفع بالأحياء عدم نسيان موتاهم، وبث نوع من طرح التساؤل والتأمل في طبيعتها ومكوناتها، وتبرز إحياء تراثهم وتاريخهم عبر أضرحة هرمية مستديرة ضخمة بعيدة عن مساكنهم تُذكرهم بمآلهم، أو حتى لا يصبح الميت الذي يعيش حياة أخرى في العالم الآخر، مصدر فزع لراحة وحياة الأحياء (المؤمن، 2012، الصفحات 217-219).

والجدير بالذكر، فإن هذا الفن يعرض في مضمونه سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة والممات؛ لأنه يوضح أن حياة الإنسان رحلة دائمة لا تتوقف بموته، بل تبقى خالدة حتى في عصرنا، فأهمية هذا الموروث المادي تتجلى في استمراره في الحياة، كالقلب النابض في جسم أي كائن حي، لكونها معالم هندسية هامة في

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

خريطة العمران الجنائزي المحلي، مشكلة جملة من التراكمات الناجمة عن السلوكيات اجتماعية وسياسية وروحية، على مدى فترات زمنية معينة (شنيتي، 2013، صفحة 11).

ولعل هذا يجعلنا نتساءل حول **طبيعة هذا البناء الفكري المنطقي، هل يستهدف بالدرجة الأولى أشكال المعالم الأثرية أم الأفراد؟** وعند التعمق أكثر في التأمل في تلك الأضرحة، تراودنا تساؤلات أخرى تتعلق أساسا **بالأساليب المتبعة في بنائها وكيفية تشييدها؟ وهل تطلب ذلك الاستعانة والاعتماد على مهندسين ويد عاملة ماهرة ومؤهلة محلية وأجنبية؟ وإلى مدى ساهمت وسائل النقل البري في عملية توفير مواد البناء؟ كم استغرق ذلك من زمن؟ هل كانت وفق رؤية إستراتيجية بعيدة المدى ذات طابع سياسي أم مجرد تقليد محلي؟**

يستهدف هذا الفن المعماري تصوير الأفكار والثقافات السائدة في فترة ومنطقة معينة، من خلال استنارة الفكر كتعبير عن منطلق ثابت للرقي الحضاري، وليس تصوير للفرد الذي يجسدها بعينه، لأن الأفراد مصيرهم الزوال، أي أن مدلول هذا التراث المادي يتجاوز الأشخاص، وسرد أسماء الملوك والزعماء بقدر ما يوضح علاقة هؤلاء بشعوبهم، ويمثل صورة تعكس طبيعة عيشهم، التي تحكي لنا تراكمات تلك التفاعلات السائرة نحو الأمام، تملأ عامل الغد ثقة تدفعه لتجاوز كل الشكوك، عندما نعرف كيف نستنطقها لفهم حقيقتها، وهذا الشيء يعبر لنا عن قيمة هذا التاريخ الحي الذي يحكي لنا مراحل تلك الحضارة السابقة (صفر، 1959، صفحة 21).

وعند تشييد هذا الفنان لهذه الأضرحة والمعالم الجنائزية إنما يناشد الدوام والخلود، فكانت تلك الأضرحة محورها التقديس والإبداع من حيث الشكل والفن المعماري، أي أن محورها المعتقد الديني والدنيوي، وهذا يفسر قصور فكره وتصوره عند محاولة فهمه وتفسيره لظاهرة الموت؛ واسترسل خياله في تفسير الحياة الأبدية ما بعد الموت، فهي تصوير للواقع الفكري المنظور والمستور معا؛ وما يدل عن ذلك مثلا؛ ما ذكره "**هيرودوت**" في كتابه التواريخ، الجزء الرابع الفقرة 172 منه؛ حول معتقد النوم على القبور، بطريقة تسمح لهم باستطلاع الغيب ومعرفة المستقبل، فكل حلم يتراءى لهم أثناء نومهم على تلك القبور يأخذونه مأخذ الوحي، يعملون به ويحتكمون إليه (غانم م.، 2005، صفحة 23).

ويقال أن أعظم وفاء هو وفاء الأحياء للأموات، فهو وفاء طاهر بلا مصالح وخلفيات، وفاء صادق في شعوره ومخلص في مضمونه، يعبر عن درجة الولاء، التي حملته تلك الشعوب لملوكهم، الذين تركوهم بين الحنين والأنين؛ ولذلك يمكن وصف هذه الظاهرة بالحوار الصامت بين الأحياء والأموات، توضح لنا علاقة العالم الدنيوي والأخروي، كنوع من التواصل المباشر مع الميت، والتي تبرز سبل ضمان خلود أرواح الموتى في العالم الآخر، كما لا يستبعد أن من قام بتشييد هذه المعالم والأضرحة الملكية المشتركة هم أنفسهم من دفنوا فيها رفقة عائلاتهم، في شكل استباقهم لموتهم وإدراكهم لمآلهم، مما أدى لظهور هذا النوع من المدافن في حياة الأفراد، والتي تعبر عن درجة التباهي أمام الأحياء (المؤمن، 2023، صفحة 74،80).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

2. موقفنا من هذا الموروث ودوره في حياتنا المعاصرة

قد لا نتفق جميعا عند تحليل طبيعة ومكونات تلك المعالم الجنائزية، وقد نختلف في زمن تشييدها، وكيفية ذلك والغرض منها، لكننا نتفق جميعنا على أهميتها في كونها خلّدت نوعا من المعرفة بطبيعة الهندسة المعمارية الراقية خلّفها الإنسان المحلي، والتي لا تزال حية بتصاميمها الدقيقة، معبرا عن ذوقه الفني الجميل المتأصل، وكمصدر حيوي للإبداع، يعزز الانتماء للوطن، وهذا يقودنا للتساؤل حول سبب الاختلاف: **هل يعود لغياب أدلة مادية معاصرة معززة لذلك الموروث تفسر طبيعة تلك الأشكال الهندسية أم يرجع لخلفيات فكرية نابعة من فرضيات مشكوك فيها أم تعبر عن حالة من العجز في فهمها؟**

وعلى هذا الأساس سنتطرق لإبراز الأبعاد الحضارية لهذه الاختلافات، ثم نحاول توضيح علاقة هذه الأضرحة الملكية بالأفكار السائدة في الفترة القديمة على غرار فكرة الخلود.

1.2. اختلاف الباحثين حول هذا الموروث المادي وأبعاده الحضارية

قبل التطرق لتلك الاختلافات، لابد من الإشارة لاعتبارات منهجية توضح وجهة نظرنا حول هذه نقطة الجوهرية: يتعرض الباحث أو المهتم في دراسة التاريخ القديم أو في علم الآثار عند محاولته استنطاق الشواهد المادية، ومحاولة فهم مختلف مظاهر التطور للمجتمعات القديمة، لصعوبات ميدانية وتعقيدات منهجية تفرض عليه استعمال أدوات عقلية تتوافق مع الواقع، وهذه الأخيرة قد لا تعطي صورة دقيقة عن طبيعة تلك المعالم الجنائزية ومعتقدات تلك الشعوب، مما يتوصل إلى نتائج تقريبية أو فرضيات تحتمل الصدق أو الخطأ، تعتمد أحيانا على المعرفة التقريبية، والتعميم المستعجل في إبراز المعتقدات القديمة السائدة، والعلاقات بين ملوك النوميد والشعوب الخاضعة لهم.

لأن هذه العلاقات تخضع لنظام التطور الاجتماعي، فتفسير كل نظام اجتماعي قديم بمعطيات معاصرة قد يؤدي إلى تصورات خاطئة، وهذه المعرفة النسبية ربما من خصوصيات مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية، مما يوسع الجدل والاختلافات بين الباحثين، كل حسب وجهة نظره، والمعطيات المتوفرة بين يديه وحسب خصوصية كل حقبة تاريخية. قد يفضي بنا أحيانا إلى مزالق خطرة عند محاولة فهم طبيعتها، لأن الاقتصار على دراسة تلك المعالم على نحو مجرد ومن دون إدراجها في تيار الزمن، يوقعنا في تعميمات سهلة أقرب إلى التأملات الفلسفية منها إلى التأريخ (بروديل، 1993، صفحة 17).

ويقابل هذا الرأي طرح آخر معاكس تماما، بحيث يرى بعض الباحثين وعلى رأسهم شارل أندري جوليان؛ أننا عندما ندرس أحوال الأهالي، دون الاستناد إلى مصادر مؤثرة وكافية، يلفت انتباهنا بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والدينية الحالية، لاسيما تلك التي تتوافق مع الكثير من العادات القديمة التي تمتد جذورها إلى ماض سحيق، ولذلك نسمح لأنفسنا بالاعتماد على ملاحظات حديثة، لتعويض الحلقات المفردة من الوثائق أو ربط أحداث واقعة خلال مختلف العصور، تظل غامضة من دون ذلك، في ظل انعدام التواريخ، فنعتمد على قياس الظواهر المعاصرة بالقديمة، لأنها طريقة دقيقة تشكو داء ليس له دواء، خصوصا إذا استعملت بمهارة

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

تعطي نتائج مدهشة في بعض الأحيان (جوليان، 1983، صفحة 74).

وفي هذا الشأن تساءل البعض حول **إمكانية أن نرضى بتاريخ لا مادة فيه ولا روح ولا حياة؟** بمعنى كيف يمكن تجاوز نقطة نقص المصادر وعدم القدرة على استقراء تلك المعالم، لهذا اعتبروا أن الشعب هو مادة التاريخ الحقيقي، وأهم عنصر من عناصره، وعليه لا فائدة من إيجاد حلول نظرية فوق الورق، بل ينبغي أن نجد حلول عملية تناسب الوضعية الراهنة، وأن نجعل الغاية من التاريخ معرفة حياة الشعوب ورسائلهم واستمرار عاداتها عبر العصور (صفر، 1959، الصفحات 21-22).

وعلى إثر ذلك لقد طرحت مجموعة من التساؤلات حول تلك المعالم الأثرية الضخمة فعلى سبيل المثال نأخذ ضريح المدغاسن والضريح الملكي العائلي المشترك بتيبازة عينة في هذه الدراسة، حيث تمحور مضمون تلك التساؤلات كما يلي:

متى تم تشييد تلك الأضرحة الملكية؟ لأي ملك أو عائلة ملكية تنسب؟ ما هو أصل تسميتها؟ هل الغرفة المركزية هي الغرفة الجنائزية؟ هل صحيح أن تلك الأضرحة تمثل نماذج متطورة عن القبور الإفريقية المحلية المعروفة باسم البازيناس، حتى لو افترضنا ذلك فما هو تفسيرنا لطابع الهندسي الخارجي الذي يحتوي على التأثيرات الهندسية الخارجية المصرية، الإغريقية، الفينيقية والمتوسطية؟ هل صحيح أنها مقابر أو نوع من العمران الجنائزي أم هي عبارة عن نوع من المساكن أو العمران المدني؟ هل لها طابع آخر كالمباهاة أو معرفة زمن المستقبل أم أن الغاية منه العبادة والتقديس للملوك الموتى واعتقادهم بالحياة ما بعد الموت؟ لماذا عجزت الأبحاث الأثرية في مرحلة الهواة ومرحلة الحفريات العلمية عن تقديم معلومات كافية وتفسير الغموض حولها إلى يومنا هذا؟

وهذه التساؤلات وردت بعد الحفريات العلمية التي قام بها كل "**بوتشي** Beauchetet"، "**كامبس** Camps"، "**موليني فيول** Molinier-Violle"، "**مرسي** Mercier"، "قزال Gsell"، "**تيسو** Tissot"، "**فربينيوس** Frobenius"، "**بامار** Pamart"، وغيرهم حسب ما ذكره "**كامبس**" في مقاله المعنون بـ: "**ملاحظات جديدة على عمارة وعصر الضريح الملكي النوميدي المدغاسن**"، هذه الدراسة أعطت صورة واضحة في توصيف الضريح الملكي (Camps, 1973, p. 478)، بالإضافة لدراسة ستيفان قزال في كتابه: "**تاريخ شمال أفريقيا القديم**"، في جزئه السادس (Gsel, 1927, pp. 262-273).

وعلى هذا الأساس، نسجل اختلاف الباحثين المهتمين بدراسة الأضرحة الملكية الضخمة، حول تسمية هذه المعالم الجنائزية، ولم يبقى هذا الجدال في التسمية فقط، بل تعدى إلى الشك في أصالة هذه المعالم، ونسبتها إلى الحضارات المجاورة، وفق ديناميكية مرجعية تقوم على أساس التأثر بشعوب أخرى، وأصبحت فكرة التأصيل والتقليد بهذا المعنى عبارة عن ظاهرة ثقافية، تحمل في طياتها جملة من الخلفيات التي تشكك في تاريخنا، نابعة من سوء فهم وجهل محتوى طبيعة هذه المعالم الأثرية، المعتمدة أساسا على فرضيات تحتمل الصدق أو الخطأ، لأنها تحتاج دائما إلى أدلة وبراهين مؤيدة. ولا شك أن الضريح الملكي العائلي المشترك

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

بتيبازة هو تقليد عن المدغاسن، الذي استعيرت منه التنظيمات العامة للبناء كالحجارة والأعمدة المندمجة المحيطة به، استطاعوا تقليده ونسخه تماما رغم بعض الاختلافات الجزئية، وبناء ضريح أحسن وأكبر منه ألا وهو ضريح تيبازة (Gsel, 1927, pp. 268-269).

وهذه التساؤلات التي عمقت الاختلافات السابقة، تبين أننا لا نعلم إلا شذرات بسيطة من تاريخنا القديم الثري بالأحداث، حين نفتقد للمصادر المادية والأدبية والأُثاث الجنائزي التي تدعمها، وهذا يقودنا لطرح تساؤل آخر: **هل هذه الاختلافات الفكرية الناتجة عن معالجة تلك التساؤلات الجوهرية، يمكن أن نعتبرها إثراء ومجهود علمي ومساهمات بحثية غنية في الجوهر تستحق التشجيع، لأن هدفها البحث عن الحقيقة التاريخية في ظل غياب أدلة وبراهين مؤيدة لذلك أم أنها تعبر عن مجموعة من الأفكار العقيمة التي لا تمهد لانطلاقة جديدة إلى الأمام، بقدر ما تعبر عن حالة من العجز؟ بمعني هل هذا الاختلاف يساعد في البحث عن الهوية والانتماء أم يعتبر بث نوع من الشك حولها؟ على هذا النحو هل يمكن أن نعتبرها نعمة أم نقمة؟**

نرى أن الاختلاف في هذا السياق وعلى هذا النحو يُعد نعمة وإثراء للبحث العلمي، خصوصا إذا كانت تستند إلى المنطق والعقل وتعتمد على الأسلوب العلمي، وتبتعد على الخلفيات والميول والأهواء الشخصية. لأننا يجب الاهتمام بالجوهر واللب، وترك تلك الأفكار العقيمة التي لا تغني ولا تنفع، بل تضر وتبث نوع من الشك والعجز والإقصاء، ما يجعلنا نفترض أن تلك الأضرحة (المدغاسن وضريح تيبازة) شيدت منذ زمن بعيد يعود إلى ما قبل الميلاد ما بين القرن الرابع إلى القرن الأول قبل الميلاد؛ تعود للعائلة الملكية المشتركة النوميدية؛ حتى ولو افترضنا أن (ضريح تيبازة) قد يبدو تشييده متأخرا نوعا ما عن سابقه، ربما بعد زوال نوميديا، أي في الفترة المورية، إلا أن أصل بعض ملوكها من العائلة الماسيلية التي ينتمي إليها ماسينيسا (يوبا الثاني وبطليموس) (عقون، 2013، الصفحات 94-95)، فهي تمثل نماذج متطورة عن القبور الإفريقية المحلية المعروفة باسم البازيناس، ذات تأثيرات بالهندسة الخارجية نتيجة الانفتاح على الجوار والاستفادة من تلك التحسينات على العمران، مما يدل على أن الممالك المحلية القديمة لم تكن منعزلة عن الجوار الحضاري، بحكم الموقع الجغرافي الذي جعلها مؤهلة لأن تتجاوب معها، في شكل وعاء نقل حضاري متضمن معارف وتقنيات مكتسبة (Gsel, 1927, p. 273).

ومن جهتنا عند الإشارة لتلك التساؤلات، ليس الغرض منها بث نوع من الشك أو زيادة في اتساع الفجوة بين الفرضيات المستنبطة والحقيقة التاريخية لها، لأن هذه الأخيرة صعبة المنال، وتلك الأسئلة تبقى محل أخذ ورّد بين الباحثين، كل من وجهة نظره، كمؤشر جيد لحالة الفكر والبحث، لكي تلتئم ما خلفته جراح اللسان من تأثير بعض الأقوال، ويتجاوز شبهات وخلفيات ما دونته بعض الأقلام، التي كان مفعول أثرها وانعكاسها على الهوية للأسف الشديد، يتعدى ما تخلفه ضربات المدافع والأسلحة من أضرار، فتلك التساؤلات تجعلنا نضع الإصبع على الجرح مباشرة، ما يخول لها أن تكون آلية مؤثرة في البحث، تعطي إضافة تساعدنا على درجة الاستيعاب والفهم لتلك المعالم الجنائزية، بما فيها من غموض لا ندركه إلا حين نحاول معرفة أسرارها بشكل

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أدق. لأنها ترتكز عليها أمالنا للبحث عن الانتماء والجذور العميقة لأصولنا، كونها تندمج في حاضرنا وجزء لا يتجزأ منه، ومن هذا المنطلق فالتراث المندمج لا يحتاج إلى إحياء لأنه حي بطبيعته، من حيث استشعارنا بوجوده والتعبير عن واقعه القديم (فؤاد، 1976، صفحة 87).

وكل هذا يجعلنا نقر بأن تلك الأعمال البحثية التي أثارت تلك التساؤلات، تساهم بدون شك في تقدم مستوى المساءلة في الأبحاث التاريخية، لغرض الوصول لتقديم تفسير لبعض القضايا الشائكة التي تعترض تاريخنا. لأن تلك الدراسات السابقة بالرغم من أهميتها كسند مرجعي ومن حيث طبيعة نسقها المنهجي، إلا أنها تفتقر للأدلة الكافية، مما يفرض عليها الأخذ بجزء من المصادر غير المؤثرة، وتحدث عنها إسقاطات معممة فيجعلها غير ثابتة في منطقها، ولا تستجيب لمعالجة التساؤلات المطروحة، هذا ما يسمح بتكرار بعضها أو بناء فرضيات غير دقيقة، فينتج نوعا من الفراغ في هذا المجال، اعتبارا للحدود التي تفرضها نقص وندرة المصادر المادية والأدبية، مما يحكم عليها بأن تبقى رهينة اكتشاف مصادر أخرى، مرتبطة بالأثاث الجنائزي والرسوم الجدارية والنقوش التي تدعمها (رابح، 2007، صفحة 25).

وعندما نقول إن هذا المجال لا يزال بكرا في بداياته، مرتبطا ورهينا باكتشاف مصادر أخرى، هذا يعني أن نقص المصادر لا تزال تشكل العقبة الأساسية أمام الباحثين المهتمين بذلك، خصوصا إذا علمنا أن المصدر الأدبي الوحيد هو ما أورده الجغرافي اللاتيني "**بومبنيوس ميلا**" (Pomponius Méla) في كتابه: "**الجغرافيا**" I،6،38. الذي وصف ضريح تيبازة بعبارة مختصرة بأنه: "**معلم مشترك لأسرة ملكية**"، فاكتشاف مصادر جديدة من شأنها أن تشجع على البحث والمضي قدما لمعالجة تلك التساؤلات، وتعمل على تنوير قريحة وأقلام المؤلفين، وتشجع همم الباحثين على نحو أفضل، قد يؤدي إلى توجه جديد يلخص تراكمات تلك الأعمال البحثية، في شكل منطلقات فكرية، ولَبِنَات في آفاق التعرف على حقيقتها التاريخية (Gsell, 1901, p. 73).

فهذه الأضرحة الملكية القديمة تؤكد على أن الحاضر يضم الماضي في داخله، وأن هذا الأخير ماثل دائما أمامنا، عندما نضعه في سياقه الفعلي، ونتأمله من منظوره النسبي، إذن فهي تبقى في نهاية المطاف دائمة الحضور مع الواقع، إذا لم تتعرض للتخريب والتهديم بفعل الظروف الطبيعية والعوامل البشرية (فؤاد، 1976، صفحة 75). كما أن هذه المعالم الصماء قد لا تفيد في شيء إلا إذا أحسنا قراءتها، عن طريق استجواب الأطلال ومناداة الأنقاض، والاستفادة منها وذلك بنفخ الروح في تلك الآثار الميتة وتلك المعالم الجامدة، فتصير ناطقة حية تعبر عن واقع زمنها (صفر، 1959، الصفحات 22-23).

وعند تحليلنا لهذا الكلام الذي لا يشجع على البحث والاستقصاء فحسب، بقدر ما يحمل في طياته من تكليف بمسؤولية استنطاقها وفهمها، تقع على عاتق القائم بهذه المهمة النبيلة، الذي يعمل على تسخير كل الإمكانيات في مواجهة ظاهرة الضياع والاستلاب، وفي هذا الشأن تستوقفنا أهمية تلك المعالم الأثرية بصفة عامة، التي تعبر عن وقائع خرساء تصل إلينا من أزمنة سحيقة القدم، وتعيش معنا بوتيرة على حدود الصمت والثبات، مما يستلزم استنطاق تلك الوقائع الصماء، والكشف عنها في حاضرنا، وهذا يسمح لنا بإيجاد آلية

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

جديدة، تساعدنا على تحمل مسؤولية عملية الاستنطاق والفهم، لأنها ليست بالشيء السهل والهين دون توفر ميزة الملكة التاريخية، والقدرة على النقد والتحليل، وتذوق التراث ومحاكاته، بغية فهم أبعاده وطريقة تفكير أصحابه، باستعمال مختلف الأساليب والتقنيات الحديثة التي تساعدنا في عملية البحث، سواء بدراسته دراسة وصفية أو باعتباره انعكاسا ماديا حضاريا للمجتمعات البشرية القديمة (بروديل، 1993، صفحة 17).

وكل هذا يجعلنا نتفق مع وجهة النظر، التي اعتبرت أن هذا الفن المعماري يعبر عن درجة ارتقاء أصحابها في محيطها الجيو–حضاري، من حيث القيمة الفنية والجمالية، ذات الطابع الأزلي، تشكل وديعة تزداد قيمتها بمرور الزمن، باعتبارها أمانة ورسالة من الماضي، يجب أن تبلغ للأجيال القادمة، لما في ذلك من أهمية تجسد طابع الأصالة والحصانة من أي مشكك في تاريخنا الضارب في القدم (شنيتي، 2013، صفحة 11). وبالمفهوم المعاكس إن عدم تبليغ هذه الأمانة إهمالا أو تفريطا منا سنساهم في تعطيل مواهب عن الإبداع والإنتاج، ونقطع استمرار ذلك التراث في جيل القادم، وأننا حين نبلغها بكل صدق ومصداقية، نحسن لأنفسنا في بناء وطننا، وتنوير شبابنا بجذوره التاريخية، حسب ما اتصف به أسلافنا من شدة وقوة، عزة وسيادة، تطور وحضارة، وبذلك نثبت مكاننا بين الأمم (شنيتي، 2013، صفحة 12).

وعلى هذا الأساس، فإن الماضي يطل علينا من نوافذ متعددة فنشاهده أينما التفتنا وتوجهنا، نستمد منه عناصر الفخر والاعتزاز، وباستمراره تكمن قيمة هذا الموروث الثقافي، في كونه جزء من تاريخ متصل ومتداخل، وهذا الاستمرار يتمثل في تخليد موت الملوك، وهو الشكل الوحيد الذي تستطيع به الحياة أن تثبت ذاتها، بمعنى أن هذا الموروث يحي من خلال موته، فبالرغم من قدمه وفنائه إلا أن معالمه موجودة في الحاضر، وبالمقابل عدم الاهتمام به وتجاهل تلك الأضرحة، تجعل هذا الموروث يموت من خلال حياته بالرغم من بقائه ودوامه، وفقدانه يعني فقدان الذاكرة الحية الملموسة، التي تعد قرينة مادية نقيس عليها المستوى الحضاري للأمة، لذا علينا الاستفادة منه بالاستثمار في إبداعه، وأن نتحرى أثاره المختلفة في حياتنا، لنعزز به ما يصلح لحاضرنا وتطلعات مستقبلنا (زريق، 1976، صفحة 103).

وعند العودة للإشارة حول الجدال والسجال بين الباحثين، في نظرنا يعود لعدم توحيد المنطلقات الفكرية والقناعات الإيديولوجية، وهذا بسبب نقص أو غياب نخبة وطنية مكونة من إطارات علمية مختصة ومؤثرة في البحث–دون إقصاء لمجهود أساتذتنا وإطاراتنا التي أنارت لنا الطريق– بمعنى نقر بوجود إطارات فردية محلية ذات كفاءات عالية، مختصة في البحث، بعضها قد وافته المنية رحمهم الله، والبعض الآخر على قيد الحياة فعلينا أن نستثمر منهم بالاحتكاك بهم، لأنهم يملكون باعا ثريا وخبرات تلخص مسيرة حافلة في البحث والاستقصاء، بالرغم من الصعوبات التي صادفتهم من قلة الإمكانيات، فلم تتوفر لهم الحوافز المتاحة حاليا.

بالإضافة إلى افتقادنا إلى مبادرات ثقافية ذات البعد المنهجي توضح تلك الأفكار والآراء، بالرغم من إقرارنا مجددا بوجود بعض المحاولات في شكل مشاريع بحث ناجحة، إلا أنها لم تصل للهدف المنشود، بل أن بعضها أصبح للأسف الشديد عبارة عن منبر ثغرات، يثير الجدل الفكري العقيم القائم على التكرار، ويفتقد

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

للأسلوب العلمي المحكم، والمنهج السليم المبدع. لذا يجب علينا توحيد المرتكزات الذهنية، وأن نبتعد عن التأويلات وسوء الفهم وإبداء الأحكام المسبقة قدر الإمكان.

2.2. علاقة الأضرحة الملكية النوميدية بفكرة الخلود

عند التأمل الجيد في تلك المعالم الأثرية من جهة، وطريقة تفكير الملوك التي تسعى لتخليد مآثر أسلافهم والبحث عن الخلود من جهة أخرى، هنا يجعلنا نقف على طرح آخر وقراءة جديدة، من خلال الربط بين هذه الأضرحة وفكرة الخلود التي كان يبحث عنها الإنسان القديم؛ فهل نجح ذلك الإنسان في تجسيد فكرة الخلود على الأموات بعدما عجز في تفسير ظاهرة الموت على الأحياء؟

فبقاء تلك الأضرحة خالدة إلى عصرنا هذا منذ بنائها- "**أليس هذا نوع من الخلود؟**"- يدل على أن هذا الأخير نجح في تجسيد ظاهرة الخلود، على نحو آخر من المفهوم المعروف لها، فعندما لم يصل إليها وعجز في تفسيرها صاغها بطريقة بديلة، ووُفِقَ في مسعاه الذي يرمي لتخليد فخرهم، وتشييد معمارهم وتقديس أرواح موتاهم، مكنها من الاستمرار والثبات عبر العصور المتعاقبة. مخلفا تلك البصمة المحلية التي صيغة على شكل جثوة أهلية مغطاة برداء أجنبي منقول على ضريح نوميدي قديم (Gsel, 1927, p. 272).

كما يجب التوضيح حسب وجهة نظرنا، أن فكرة الخلود تختلف عن فكرة التخليد، لأن الأولى يسعى إليها الأحياء عند تفسير ظاهرة الموت، وهذا أمر مستحيل فالخلود لله سبحانه وتعالى وحده، أما الثانية فهي تخليد لمآثر وأرواح الأموات، وهذا يؤكد أن الإنسان القديم نجح في تجسيد تلك الظاهرة، وجعلها كعنوان لتطور فكره ورقي ذوقه المعماري الأصيل؛ فالخلود بهذا المعنى هو استمرار الضريح من غير اعتراضه للتغيير والفساد وبقائه على حاله، بالرغم من بعض التشوهات ونسبة الاهتراءات التي طرأت عليه، نتيجة تأثرها بالظروف الطبيعية، والتدخلات البشرية التي حاولت على مر الزمن التطفل عليها؛ سواء بالاستكشاف أو سرقة الكنوز أو محاولة تهديمه قصد طمس الهوية والانتماء، وهذا يشير إلى أن خلود البشر أمر مستحيل لأنهم فانون لا محالة، بل يكمن الخلود فيما خلفوه من فنون العمارة والبناء والتشييد (المؤمن، 2012، صفحة 26).

فبالعودة للمعتقد القديم الذي يشير إلى أن الجسد تسكنه الروح والنفس، وأن المتوفى لا يفقد لدى موته سوى الروح، ويحتفظ في قبره بالقرب من الجسد بنفسه، وهنا تستقطبنا تلك الزخارف والآثار الموجودة التي تتعلق بخلود النفس، وهذه الأخيرة تحتاج لأن تأكل وتشرب، أو تتأمل الطبيعة، لذا كانت الأضرحة تبنى عموما في أماكن عالية، وغالبا مطلة على البحر مثل الضريح الملكي المشترك بتيبازة (رمضان، 2009، صفحة 83).

وفي هذه النقطة بالذات استوقفتني عبارة سالوست (Salluste) حين يرسم للماضي لوحة يتضمنها كل الجماليات بتعبيره المستند على بعض الحكمة والفلسفة، وعليه حاولت أن أبني عليها إسقاطات على واقع تلك المعالم الجنائزية، التي أوردها في مقدمته، فقرة 2 (II)، من كتابه: مؤامرة كاتيلينا وحرب يوغرطة بقوله :"**إن الإنسان مركب من جسد وروح...في حين أن إبداعات العقل الباهرة، مثلها مثل الروح تبقى خالدة، والخلاصة أن مزايا الجسم والثروة لها نهاية مثل ما لها بداية، فكل مولود سيهلك وكل شاب يكبر ويشيخ،**

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

أما الروح فإنها لا تبلى، إنها سرمدية، إنها سيدة الجنس البشري، تقود الكل وتهيمن على الكل...، والعقل هو الوسيلة المثلى لاكتساب الأمجاد السامية" (سالوستيوس، 2006، الصفحات 75-76) (Salluste, 1910, p. 68).

ومن خلال تحليلنا لهذه الفقرة، يتبين أن الهدف الذي يوظف لأجله التاريخ يبنى على العبرة والموعظة والتأمل، لكشف خبايا وأسرار هذا الإبداع والقوى الخفية للنفس البشرية، وأن ما يتركه الفرد من إبداع عقلي وفنون معمارية هندسية تبقى خالدة مثل الروح، وهذا حال تلك المعالم الجنائزية التي جعل منها الإنسان المحلي الوسيلة المثلى للسمو والرقي وكسب درجة عالية من المجد والمباهاة، تقودهم إلى الخلود رغم طبيعة البشر الفانية، في حين أن الجمال الطبيعي والثروة المادية، القوة والمُلك وما شبه، مصيرها الفناء، وستزول في وقت قصير لا محالة (سالوستيوس، 2006، صفحة 75).

وفي هذا الشأن يعتقد أن تلك الأضرحة تعتبر مقر تواجد أشباح (الأرواح) وأماكن مسكن الجن(عفانا الله وإياكم منها)، لذا يقال أن هناك أصوات تصدر منها في الليل وأحداث غريبة- حسب تصريحات شهود عيان من سكان الجوار- وربما ترجع للتعويذات والطقوس السحرية المدسوسة فيها، بغض النظر على أن المساكن الخالية والمقابر تمثل موطن تلك الأرواح بصفة عادية، على الأقل أنها لا تساهم في تخريب هذا الموروث عكس الفعل البشري السلبي (Gsell, 1926, pp. 145-146) (رابح، 2007، صفحة 131)، وحتى عند محاولة تخريبه وسرقة كنوزه في الفترة العثمانية سنة 1555 م، ظهرت زنابير سوداء كبيرة، شديدة اللذع وضعت حدا لمحاولة تحطيمه، ولاقت نفس المصير بالنسبة للمحاولات الأخرى (رابح، 2007، الصفحات 104-105).

ومن هذا المنطلق، نحن لا ندعو إلى تقديس ما قدسه أسلافنا، ولا نطالب بتجسيد تلك المعتقدات التي تجاوزها الدهر في واقعنا، لأن التقديس والعظمة لله سبحانه وتعالى، والخلود والبقاء له وحده، كما أن مقدسات ومعتقدات الأمس ليست بالضرورة هي معتقدات اليوم، وإن كانت هناك بعض العوامل المشتركة بينهما، وإنما ندرسها من باب المعرفة والاطلاع على المعتقدات القديمة السائدة، وتحليل تلك الأفكار البسيطة، والنظر في مدى مساهمتها وتأثيرها في نمو وتطور حسه الفني، ونحاول إعادة بناء مثلها لمعرفة طريقة هندستها واستيعاب مدلولها واكتشاف خباياها وأسرارها (شنيتي، 2013، صفحة 13).

وبالمقابل لا نراها مجرد مادة أثرية جافة، وحجارة صماء وضعت فوق بعضها لا قيمة لها، ولا نعلم جزئياتها وتفاصيلها، فهذه الأفكار تعد نوع من الإجحاف في تاريخنا، فنحن ملزمون بدراسة الماضي من خلالها كما وقع دون زيادة أو نقصان، لأنها تمثل خزانا هاما من المعلومات، حين تكشف لنا طبيعة معتقدات أولئك الشعوب وولائهم لملوكهم، وكعربون وفاء لأعمالهم، تهدف للارتقاء الاجتماعي والسياسي؛ لذا يجب أن نضع هذا الموروث في سياقه الطبيعي ومنظوره الحقيقي، وكأننا نقوم ببعث الماضي من جديد، واستعادة مقومات الماضي في الحاضر (فؤاد، 1976، الصفحات 79-80).

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

وعند الحديث عن علاقة هذا التراث بالحياة المعاصرة وواقعنا الحالي، فإن المحافظة عليه تعد واجب وطني، ومن هذا المنظور يجب أن نحدد بين أمرين: ما يجب أن يكون وكيف نتعامل معه في حياتنا؛ وما يجب أن يدرس ويبقى في الذاكرة الوطنية، بهذا المعنى يسمح تناوله نظريا وتقييده عمليا، وذلك ببعث اعتزازنا بمجد ماضينا وشرف أسلافنا، دون تمجيد أعمى. وعلى هذا الأساس **هل يحق لنا التمييز من هذا الموروث الحضاري ما الذي يصلح والذي لا يصلح، مما يسمح لنا بالتخلي عن بعض تلك المعتقدات البالية التي لا تتوافق مع مبادئ ديننا الحنيف، لأننا لسنا ملزمون بسلوكها، ويمكننا أن نأخذ ما هو إيجابي لكي نستفيد منها، مع التخلي وترك كل ما هو سلبي في حياتنا فقط؟**

قد يبدوا هذا الطرح منطقي ومقبول، مع الأخذ بعين الاعتبار الفروق الاجتماعية والقدرة على استيعاب الأفراد لهذا الموروث، وواقع حالنا اليوم يقاس على ذلك (التوجه للأضرحة والأولياء الصالحين قد يعكس جزءا من هذا الفكر الوثني المنغمس في الضلال والجهل، يحمل نوعا أو سهما فيه ذريعة نحو الشرك، خصوصا تلك الزيارات المتعلقة بالاستعانة بالموتى، واستطلاع الغيب، والاستمداد من الأرواح لقضاء حاجاتهم، والنذور المتداولة أبا عن جد... وهذا أمر غير مقبول) (الميلي، 2001، صفحة 148).

لكن يجب علينا دوما التحلي بدرجة من الوعي والحذر في التعامل معها، خصوصا إذا علمنا أن بعض المعتقدات القديمة قد نراها بالية لكنها تحمل في مضمونها ومدلولها ثراء علمي واسع، وأفق واعدة لحضارة راقية، قد أدركت بعض معتقداتها ارتكاز الحياة على الأسباب، وفهم طبيعة الوجود خارج الوعي الإنساني(من خلال قوة غيبية خارقة غير مرئية قادرة على الخلق والموت، والحياة ما بعد الموت–ومن مقومات الإيمان توحيد تلك القوة الغيبية وتخصيصها بالله–) (الميلي، 2001، صفحة 148)، وإنما يصعب فهم تلك المعتقدات لجهلنا أو لعجزنا عن تفسيرها، مما يجعلنا نسيء الحكم عليها. وبالمقابل يجب دراسة ذلك الموروث كله دون إقصائه من الذاكرة، أي يبقى يدرس نظريا كله كما هو، دون إقصاء لجزء منه، حتى ولو كان غير مرغوب فيه، وبهذه المفارقة البسيطة تسمح لنا بنقله للأجيال الصاعدة بكل صدق وأمانة (شنيتي، 2013، صفحة 12).

لذا علينا توظيف هذه المعلومات المستمدة من المعالم التاريخية قدر الإمكان، لفهم طبيعة الأفكار والثقافات الماضية، وتقصي الحقائق وتمحيصها لترسيخ تلك الحركية في المسيرة الإنسانية، وكيفية الاستفادة منها أو المحافظة عليها في خضم التحديات التي تواجهنا، والابتعاد عن المزايدات التاريخية، مع العمل على توحيد المفاهيم والاتجاهات الفكرية والاهتمام بالجهود العلمية الفتية التي تستحق التشجيع، خدمة لهذا الرصيد الحضاري السابق، الذي يمثل ذاكرة حية، وسجلا مرئيا طبيعيا في الهواء الطلق، وشاهدا على ما أنتجه العقل البشري المحلي القديم، الذي وصل اليوم إلى العالمية، لأنه يحمل في طياته جواب صريح لفض الجدال، ومعالجة تلك التساؤلات وتوضيح جزء من هذا الإشكال، والبحث عن طرق الحفاظ على هذه المعالم ووسائل حمايتها من الاندثار والزوال.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

خاتمة

ختاما لما سبق ذكره، تعتبر المعالم الجنائزية إحدى نماذج التي تبرز أنواع الموروث المادي في الجزائر، الضارب في أعماق التاريخ، تحمل في طياتها حقائق تعبر عن سلوك حضاري مادي وتاريخي وصل إليه الفكر المحلي القديم في مرحلة من مراحله المتطورة، وهذا يقودنا إلى النتائج التالية:

أن الأضرحة الملكية النوميدية تعتبر معالم هندسية هامة في خريطة العمران الجنائزي المحلي، ترتكز عليها أمالنا للبحث عن الانتماء والجذور العميقة لأصولنا، كما تؤكد على قدم الاستقرار البشري ووجود نظام سياسي قديم في المنطقة.

أنها لم تنشأ صدفة، بل لها أبعاد عقائدية، اجتماعية وسياسية، جسدت علاقة ملوك النوميد بشعوبهم القائمة على الاحترام والتقديس، عززت الروابط الاجتماعية، التي تحولت تدريجيا إلى أعراف ومعتقدات هامة كما كرست علاقتها بالبيئة الطبيعية، مخلفتا تراكمات تحتوي على خبرات وتجارب الإنسان القديم.

إن هذه المعالم الجنائزية تجسد بداية لعصر جديد، يوضح ذلك التغير في ذهنيات ومعتقدات السكان المحليين، لأنها تقدم لنا فكرة عن ملمح المجتمع النوميدي في بداياته، وتؤكد على دخوله الفترة التاريخية وبذلك مواكبة التطور الاجتماعي بتطور الفن المعماري الجنائزي بهندسته الفريدة.

أنها تحمل في طياتها معتقدات وأفكار تؤكد على روحه الإبداعية، بعدما عجز عن محاولة تفسير ظاهرة الموت؛ صاغها بطريقة بديلة واسترسل خياله في تفسير الحياة الأبدية ما بعد الموت، فهي تصوير للواقع الفكري المنظور والمستور معا، حيث لم يكن منعزلا ومنغلقا عن نفسه قبل القرن الرابع قبل الميلاد، بل كان مجتمعا منفتحا على الآخر لأن البصمة المحلية واضحة رغم التأثيرات والانفتاح على الفن المعماري المشرقي المصري، الإغريقي الهلينستي والمتوسطي.

كما يتبين أن الاختلافات الفكرية الناتجة عن تلك التساؤلات الجوهرية، تعتبر سلاح ذو حدين، فقد تكون نعمة أو نقمة، فالاختلاف نعمة عندما يساهم في بث الوعي ورسم سلم موضوعي في أذهان الأجيال، بتذوق التراث ومحاكاته، باعتباره مرجعية للحفاظ عن الهوية في إطار رؤية علمية جامعة ومانعة، وقد يكون الاختلاف نقمة إذا اعتمدنا على الفكر المتعصب، الذي يحمل في طياته خلفيات تعبر عن فساد في التصور لا يرتكز إلى السند التاريخي، تحجبه سحب الجهل بملكات ما يكسب، مما يخلق نوع من التضارب يوسع عمق تلك الفجوة، ويساهم في نخر وتشويه تاريخ الأمة، والمساس بالأبعاد التاريخية والحضارية للذاكرة الوطنية.

ومن هذا المنبر نقترح توحيد المنطلقات الفكرية والقناعات الإيديولوجية، بتكوين نخب وطنية تمثل مستقبل الأمة، مكونة من إطارات علمية مؤثرة، وتشجيع تلك المبادرات الثقافية ذات البعد المنهجي التي تمكننا من تقوية الصلة بتراثنا ومكوناتنا الحضارية. كما نقترح توظيف هذه المعلومات المستمدة من المعالم التاريخية قدر الإمكان، لفهم طبيعة الأفكار والثقافات الماضية، وتقصي الحقائق وتمحيصها لترسيخ تلك الاستمرارية والحركية في المسيرة الإنسانية، وكيفية الاستفادة منها أو المحافظة عليها في خضم التحديات التي تواجهنا.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

قائمة المصادر والمراجع:

- Camps, G. (1973). **Nouvelles observations sur l'architecture et l'âge du Medracen, mausolée royal de Numidie.** In: Comptes rendus des séances de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres , 117 année (N.3), pp. 470-517.
- Gsel, S. (1927). **Histoire Ancienne de L'Afrique du Nord (Vol. Tome VI).** Paris, Paris: Librairie Hachette.
- Gsell, S. (1926). **Promenades Archéologique aux environs d'Alger**. Paris: les Belles-Lettre.
- Gsell, S. (1911). **Atlas Archéologique de L'Algérie.** Paris, Paris: Réimpession de L'Edition Alger/Paris.
- Gsell, S. (1901). **Les Monuments Antiques de L'Algérie.** Paris, Paris: E. Libraire des Ecoles françaises.
- Salluste. (1910). **Conjuration de Catilina. Gerre de Jugurtha**. (V. Develay, Trad.) Paris: Librairie de la Bibliothèque Nationale.

– أحمد صفر. (1959). **مدنية المغرب العربي في التاريخ** (المجلد 1). تونس، تونس: دار النشر بوسلامة، مطبعة العمل.

– العربي عقون. (فيفري, 2013). **ضريح تيبازة الملكي مقاربة في تاريخ وهوية هذا المعلم**. دفاتر البحوث العلمية، 1 (2)، الصفحات 91-104.

– زكرياء فؤاد. (1976). " **التخلف الفكري وأبعاده الحضارية**"، العدد29-30، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر،1976. مجلة الأصالة، 29-30، الصفحات 74-96.

– سالوستيوس. (2006). **حرب يوغرطة**. (العربي عقون، المترجمون) عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.

– شارل أندري جوليان. (1983). **تاريخ إفريقيا الشمالية (تونس،الجزائر، المغرب الأقصى من البدء إلى الفتح الاسلامي 647م)** (الإصدار 4، المجلد 1). (محمد مزالي، البشير بن سلامة، المترجمون) تونس: الدار التونسية للنشر.

– ضو سالم ضو بن رمضان. (2009). **الديانة الليبية القديمة وتأثرها بالديانات الأخرى من القرن الخامس قبل الميلاد حتى بداية القرن الأول ميلادي**، (رسالة ماجستير). ليبيا، كلية الآداب والتربية، قسم التاريخ، جامعة سرت، ليبيا.

– غابريال كامبس. (2009). **في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ**. (العربي عقون، المترجمون) الجزائر: المجلس الأعلى للغة العربية.

– فرنان بروديل. (1993). **المتوسط والعالم المتوسطي (الإصدار 1)**. (مروان أبي سمرا، المترجمون) بيروت، لبنان: دار المنتخب العربي.

– قسطنطين زريق. (1976). **تعليق على بحث التخلف الفكري وأبعاده الحضارية**. مجلة الأصالة، 29-30، الصفحات 97-106.

– لحسن رابح. (2007). **أضرحة ملوك النوميد والمور (دراسة أثرية وتاريخية مقارنة لأهم الأضرحة الملكية النوميدية والمورية المشيدة منذ القرن الرابع ق.م إلى غاية عشية الفتح الإسلامي في القرن السابع م**. الجزائر: دار الهومة للطباعة والنشر والتوزيع.

– مبارك بن محمد الميلي. (2001). **رسالة الشرك ومظاهره (الإصدار 1)**. (تحقيق:أبي عبد الرحمان محمود، المترجمون) الرياض، السعودية: دار الراية للنشر والتوزيع.

– محمد البشير شنيتي. (2013). **التراث الأثري إرث وأمانة وجهة نظر**. مجلة آثار، 11 (2)، الصفحات 10-13.

– محمد البشير شنيتي. (1999). **الجزائر في ظل الاحتلال الروماني بحث في منظومة التحكم العسكري-الليمس الموريطاني-ومقاومة المور**. الجزائر، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

– محمد الصغير غانم. (2005). **الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال إفريقيا**. عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.

– محمد الصغير غانم. (2006). **المعالم الحضارية في الشرق الجزائري (فترة فجر التاريخ)**. عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.

– محمد الهادي حارش. (1995). **التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الإسلامي**. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)

– محمد بن عبد المؤمن. (أوت, 2023). **الكتابات الجنائزية على شواهد القبور ببلاد المغرب القديم: المضامين والأنواع.** المجلة الجزائرية للدراسات الانسانية، 5 (1)، الصفحات 68-87.

– محمد بن عبد المؤمن. (2012). **عقائد ما بعد الموت عند سكان بلاد المغرب القديم،** (أطروحة دكتوراه). وهران، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، الجزائر.

Attribution-NonCommercial-NoDerivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0)